الذئاب سبقتهُ اليهما وجعل الثلاثة يصارعون الذئاب وهي تصارعهم الى ان فازت عليهم

وفي اليوم التالي افتقد اهل القرية الخطيب والخطيبة وفتشوا عنهما فوجدوا عظام المزلقة وبعض عظام الفرسين واقدام ثلاثة من الناس وسيفاً ومسدساً وخرطوشاً فارغاً والثلج محبولاً بالدم فدفنوا الاقدام حيث وجدوها وعادوا يستغفرون الرحمة لاصحابها . بلاد مثل هذه حر مصر ارحم من شتائها ولكن المشاق تقوي العزائم والبرد لا يضعف الهمم كالحر ولهذا فاق اهالي الشمال غيرهم من ام الارض

تربيتنا المدرسية

من خطبة للاستاذ توفيق زيتى تلاها في اجتماع ادبي بالقدس الشريف
حضرهُ جمور كبير من معلمي المدارس

استأذنكم في ايراد كلمة اعتذار اضطرني الى تقديمها ضيق الوقت المعين لي . فاني رغبت منذ عن لي اول خاطر في تقديم شيء في هذا الموضوع ان احيط بهِ من جميع اطرافهِ فاطلعكم على تاريخ التعليم في المدارس ودرجات ارتقائهِ وماذا كان حظ كل امة من الامم القديمة والحديثة في امر ترقيتهِ . ثم اتوصل الى ذكر آراء اكبر المدرسين التي اوصلهم اليها العلم الواسع والاختبار الطويل فاصيحوا مشكاة لاهل التهذيب يستنيرون بنورهم و يسترشدون بضيائهم الى غير ذلك . غير اني رأيت ان الكلام سيتغلغل بي الى حد يضيق عنهُ هذا الوقت القصير ولكن ما لا يدرك كلهُ لا يترك جلهُ فلذلك رأيت ان احصر كلامي في ما كان من امر التعليم منذ القسم الاخير من القرن الثامن عشر ثم استطرد الى التنبيه على اهم النقائص في التعليم في مدارسنا واظهار افضل الطرق المعوَّل عليها الآن في سد تلك النقائص فاذا نجحت في ذلك نجحتُ

قلت في خطبة سابقة ان التربية البيتية اهم كثيراً من التربية المدرسية لانها اساسها وهو قول لا ارجع عن كلمة منهُ الآن لان الذي لا تربيهِ وتهذبهُ امهُ قلما يكون في وسع المعلم ان يؤثر فيهِ كثيراً لانهُ قلما يفلح المعلم في تزيين العلم للولد الذي لم يصادف من امهِ تحبيباً بهِ ولا تشويقاً اليهِ ولا ترغيباً فيهِ ولم يسمع منها اعجاباً بالنتائج الكبيرة الصادرة عنهُ ولا مدحاً لدويهِ غير ان هذا الكلام وان اعدتهُ تذكيراً للامهات بمقدار اهمية المسؤولية الملقاة على عواتقهن في تهذيب اولادهن الا انهُ لا يقلل شيئاً من اهمية التعليم ولا يخفف مقدار ذرة من

مسؤولية المعلم ولعلهُ لا يزال صدى كلمات البرنس بسمارك « اننا غلبنا فرنسا بمعلم المدرسة » يرن في الاذهان

بقي العلم سائراً سيرهُ البطيء حتى دخل القسم الاخير من القرن الثامن عشر فحدث في امر التعليم تغيير عظيم . والفضل في ذلك التغيير راجع لبستالوزي الاسويسري الشهير وقد وضع ملخص طريقته فقال « انهُ يجب ان يبدأ بالتعليم باكراً في البيت تحت عناية الوالدين . ويجب اجراؤهُ بحسب ناموس الطبيعة ببطء وبدون انقطاع . وان يحث المعلم التلميذ على الاجتهاد ولا يقدم لهُ من المساعدة الاَّ القليل وان لا يأمر باعمال عقلية محضة باطل ومضر لان الولد لا يقدر ان يقدم رأياً في بحث من المباحث الاَّ ما يكون قد فحصهُ فحصاً اختبارياً وعلم ان يميز بالتدقيق كيفياتهِ وصفاتهِ بواسطة الكلام . وان الشكل والعدد واللغة هي اصول المعرفة وهي المبادىء التي يجب انماؤها في العقل ومعرفتها معرفة تامة في دوائر العلم المختلفة وهي التي يقوم بها التعليم ولذلك كان الحساب العقلي والهندسة وصناعة الرسم وتصوير الاشياء اعمالاً مهمة بقدر درس اللغات ويجب ان تكون المدرسة مكان راحة ونشاط وان يكون للتلميذ فيها حرية لاستعمال قواهُ واظهارها » وما كاد هذا العالم يصرح بافكاره وبطريقة التعليم الواجب اتباعها حتى اقبل عليها المدرسون في اوربا يمحصونها ويتدبرونها ولما رأوا مزيتها كانت المدارس البروسيانية في طليعة المدارس التي اقتبستها وجرت عليها . وفي سنة ١٧٦٣ اصدر فردريك الكبير امرهُ بالزام الوالدين ارسال اولادهم الى المدرسة ولم تلبث فرنسا واميركا ان حذتا حذو المدارس البروسيانية ثم تبعتها بعد ذلك روسيا واليابان وكثير من البلدان الاوربية وستجري على تلك الخطة المملكة العثمانية عند العمل بقانونها الاساسي . اما انكلترا فبقيت غير مبالية بامر التعليم والمدارس حتى سنة ١٨٣٤ حين شعرت بحاجتها الماسة الى ترقية التعليم فاخذت تقدم المساعدات للمدارس ولم تقم بالتسلط على التعليم حتى سنة ١٨٧٠ حين امرت بتخصيص مبالغ وافرة للقيام بالمدارس الابتدائية والمحافظة عليها

ويجدر بي الآن والدولة العثمانية في بدء دستورها ولا بد ان تهتم في القريب العاجل بامر المدارس والمعلمين والتعليم ان انقل اليكم النظام المتبع في بروسيا الذي يحسب كل نظام في بابهِ . وخلاصتهُ (١) انهُ يحق للحكومة ويجب عليها ان تقوم بانشاء عدد كاف من المدارس الابتدائية لجميع الاولاد الذين في السن المدرسية (٢) انهُ يجب على كل ولد بين سن ٧ و ١٤ ان يدخل في مدرسة ابتدائية عمومية او خصوصية (٣) ان يُعدَّ المعلمون بقدر الامكان لكل انواع المدارس وان يكون لهم ابواب للتقدم في صناعتهم والترقية وان يضمن لهم مساعدة مادية

اذا مرضوا او ضعفوا او شاخوا ولعيالهم اذا ماتوا (٤) اتخاذ المراقبة المستمرة على كل مدرسة وكل معلم وان تكون المناظرة من وظائف الحكومة . هذه خلاصة ذلك النظام وحبذا لو وجد مجلس المبعوثان سبيلاً الى الجري عليه مع بعض التعديل الذي يراه لازماً

وان قيل ما هي الغاية اجيب بما قاله سبنسر وهو « ان غاية التعليم اعدادنا لان نعرف كيف نعيش العيش الصحيح » وقال بستالوزي « ليست غاية التعليم تثريجنا في الواجبات المدرسية بل جعلنا صالحين للحياة » وقال هكسلي « الحياة مثل لعب شطرنج وسعادة الانسان او شقاؤه يتوقفان على ربحه لدور اللعب او خسارته له والتعليم هو الذي يعلم قوانين ذلك اللعب » وقال رسكن « التعليم هو معرفة حيل بدننا وقوى دماغنا ومحاسن طبيعتنا ومساوئها ودرس حالة الاشياء التي نحيط بنا » الى ان قال « ان المتعلم هو الذي اصبح قلبه ارق من ذي قبل ودمه احر وذهنه اكثر توقداً وغدت نفسه هادئة مطمئنة الطمأنان السلام الحقيقي »

من يطلع على هذه الاقوال ولا يلاحظ كيف تخلصت العقول من الرباط الذي كانت مقيدة به واهملت الطريقة العتيقة التي كان يكتفى فيها من العلم بتكرير الالفاظ وحفظ القواعد ولا بدع فان العالم اليوم قد عرف ان الانسان ليس عقلاً فقط بل هو عقل يحمله جسد له مطاليب خاصة به لا يمكنه الاستغناء عنها بل لا بد للمرء من قضائها مستعيناً بقوى عقله . وارى في هذه الاقوال امراً آخر نحن من احوج الناس الى تذكاره والعمل به . كثيراً ما نندفع في مدح العلم والمتفرغين له وننقص من اعتبار غيرهم من صناعة او تجارة او زراعة او غير ذلك كانا نتصور ان كل الطلبة الذين يتخرجون في مدارسنا سيتفرغون للرياضيات او الهندسة او اللغة او التعليم وربما ذهب عن بالنا ان الذين يمكنهم على الامور العملية اكثر عدداً من الذين يقتصرون على العلوم النظرية ومن الضروري ان يفهم الطلبة ان لا عار في الصناعة مهما كان نوعها وانهم يدخلون المدرسة لتهذيب قواهم العاقلة وتوسيع مداركهم واكتشاف مواهبهم حتى اذا خرج احدهم واحترف التجارة كان تجاراً ماهراً واذا اتبع الفلاحة كان فلاحاً مجتهداً واذا صار مزارعاً كان مزارعاً نبيهاً ذكياً يكتشف في عمله اساليب جديدة ويخترع طرقاً سهلة الى غير ذلك لان غاية المدرسة تهيئة من يدخلها ليحسن عملاً وينهض بمعيشته في اي دائرة وجدها من دوائر العمل

اعتاد الكتاب قسمة التربية الى ثلاثة انواع وهي التربية الجسدية والتربية العقلية والتربية الادبية واني مجاريهم في الكلام على تربيتنا المدرسية

كيف يرى جسم الولد . ان من اول الضروريات للجهاد في الحياة ان يكون للانسان جسم سليم . ليس ذلك لان المالك تقدر قوتها بقوة رجالها العضلية بل لان اشغال الذهن تقتضي تعباً لا يحتمله ذو الجسم السقيم ولذلك قيل العقل السليم في الجسم السليم . وما قولكم اذا قلت ان المبادئ الادبية كثيراً ما تكون ضعيفة في الضعيف الجسم وسبب ذلك ان الآداب الاجتماعية من مثل عمل الخير والسعي في سبيل الصالح العام ومساعدة الآخرين وغير ذلك تقتضي نصباً وجاداً ومن كان سقيماً قصر دون البلوغ الى تلك الغاية . وضعيف الجسم يكون غالباً ضعيف الارادة لا يقوى على كبح جماح شهواته ولا امتلاك عواطفه . وقد تنبه الناس في اوربا الى ذلك في هذه الايام بنوع خصوصي فترى الوفاً من الكتب لا مبحث لها الا تحسين الصحة ولذلك شددت الحكومات وكل عاقل يشدد معها في وجوب ادخال علم حفظ الصحة الى كل مدرسة مهما بلغت من البساطة . كل ذلك مما يبين اهمية التربية الجسدية . والشروط التي تجب المحافظة عليها في هذا السبيل في الطعام واللباس والرياضة والنوم لا اكثر من الكتب فيها . لا اقول اننا يجب ان نجعل الطلبة جبابرة ولكن اقل ما يطلب منا ان نرغبهم في الرياضة ولاسيما ما كان منها في الهواء المطلق وان نحثهم على نظافة ابدانهم وثيابهم مع ترتيبها ونهتم بوضعهم في غرف يدخلها النور الكافي والهواء المتجدد بعيدة عن غبار الشوارع والطرق العمومية ونحضر لهم الكتب ذات الحرف الكبير لكي لا يضروا عيونهم بالتطلع الى الحروف الدقيقة ونعتني بمشيهم منتصبين وتجلسهم على مقاعد لها مسندات يستندون اليها ظهورهم . ربما حسب البعض ان هذه الامور من الثانويات التي لا تستحق هذا الاهتمام ولكن لو علنا عدد الذين تتكسر بهم سفينة الحياة وهم في سن الشباب فيخسرون حياتهم وتخسر بهم عوالم وبلادهم خسارة لا تعوض لو علنا عدد الذين كدر الضعف صفوهم ونغص عيشهم وساورتهم الهموم لاكبرنا الامر ونظرنا اليه بعين الاعتبار

كيف يرى عقل الولد . او كيف يعلَّم . كانت الطريقة الشائعة في مدارسنا الى ما قبل بضع سنوات ان يقف المعلم شارحاً مفسراً الى ان ينتهي الوقت وهو مشعور انهُ افاد كثيراً وانهُ علَّم . والحقيقة ان التلاميذ لم يستفيدوا وعلى الخصوص اذا كانوا صغاراً لانهُ اذا كان كلام المعلم اسمى من مدركاتهم لم يكن في وسعهم الانتباه وما هم بملومين فيكون هو قد اضاع عليهم فرصة تهذيب قواهم العاقلة من مثل قوة الملاحظة والمقابلة والمطابقة والاستنتاج والاستقراء . ثم ان وقف المعلم امام التلامذة طالبهم اول كل شيء بتلاوة القواعد غيباً حرفاً حرفاً ثم تطرق الى شيء ثانوي وهو التمثيل ولقد عاب المحققون هذه الطريقة وهم عليها جملة مآخذ واول ما

فيها انها ضد النظام الطبيعي . قال سبنسر « العلم هو المعرفة المرتبة وقبلما ترتب المعرفة يجب ان تكون حاصلة فيجب اذن ان تشتمل كل مسألة بنظرية بمثل وكل مسألة طبيعية بعملية وبعد تقديم عدة ملاحظات يبتدئ التحليل والتلخيص » (٢) ان تلك الطريقة تتعب الدماغ وكثيراً ما تكره الى الطالب العلم لأن الدماغ مثل باقي الجسم لا يكمل نموه الا بعد البلوغ ولا يكون ما فيه قبل ذلك الا افكاراً ومعرفة منقطعة متجزئة لا كليات فيها . والفهم يقتضي النظر الى كل الاجزاء متفرقة ثم نسبة بعضها الى بعض وهذا ما لا تقبل للطالب به ابتداء فاذا كلفته اياه افسدت عليك عملك وجنيت عليه وعلى نفسك ولعل الذي اغرانا بهذه الطريقة أنكب الكتب التي بين ايدينا وخصوصاً القديمة منها ففيها الضابط او القاعدة اولاً ثم يأتي المثل . ولكن يسرنا ان نرى كتبنا اليوم يؤلفون على طرز جديد ويسعون في فك ذلك التقليد القديم (٣) انها تفقد التلميذ اللذة فهي تكفي لان تحمله على الخمول . اللذة رائد الاعمال وقد يستحيل الانسان في عمله وما الدافع له غير اللذة وبدون اللذة لا اتقان في الاعمال ولا جلد على الاتعاب . اللذة هبة العناية وهي حق من حقوق طالب العلم . والعلم غذاء العقول كما ان الطعام غذاء الاجسام وكما ان تناول الطعام يصاحب بلذة هكذا من الواجب ان تلتذ العقول بالعلم فان لم يشعر الطالب بهذه اللذة يكون سبب ذلك اما سوء التربية او ضعف البنية وان لم يكن هذا ولا ذاك فالذنب على الطريقة التي استعملناها . نعم ان الحقائق السامية والمسائل العويصة تتعب الذهن وتجهد القوى العاقلة حتى تكاد تذهب باللذة ولكن هذه المسائل لا تأتي الا بعد التقدم في السن والارتقال في ميدان العلم وحينئذ توجد لذة من نوع آخر وهي اللذة التي تنشأ عن توقع النتائج الكبيرة والمنافع العظيمة واللذة التي تصدر عن محبة التفوق وهذه اللذة تخفف من التعب الوقتي وتلطف من عناء اجهاد النفس

اما الطريقة المعول عليها اليوم عند جمهور المدرسين المحققين فهي ان تذكر الامثلة تكل جزء من اجزاء القاعدة اولاً ثم تسأل الطلبة عما يبدو لهم من جهة الامر الذي تريده في المثال الاول ثم اسألهم مقابلته في المثال الثاني والثالث وهلم جرًّا واسألهم ماذا يستنتجون من ذلك وتوصل بهم الى وضع الضابط او القاعدة وان كنت في سعة من الوقت فاطلب منهم ايراد عدد من الامثلة على كل نوع . ولست ارى من اللزوم ان اصف حال الطلبة حينئذٍ . ادخل غرفة فيها تلامذة يعملون بالطريقة الاولى فترى على وجوههم سيماء الملل والضجر والخمول فهذا ينظر الى الحائط والنافذة وذاك يتثاءب يملأ فيه وذاك ينظر الى الساعة ثم ادخل غرفة فيها تلامذة يعملون على الطريقة الثانية فترى العيون تبرق والاذهان تفكر وكلهم آذان

تسمع ليسابق بعضهم بعضاً ولماذا ؟ لان المعلم سأل المقابلة بين مثل وآخر وسكت وهم يفكرون والمعلم ينتظر ليرى من منهم يسبق الى ادراك الامر المطلوب . فتأمل الفرق بين الطريقتين وام ما في الطريقة الثانية انك تشغل فكر الطالب وتحصر انتباهه وتجعله يصل الى النتيجة بنفسه ولا تكون انت اذ ذاك الا آلة تساعده في سيله بواسطة السؤالات المتتابعة وما ادراك ما صعوبة وضع تلك السؤالات وترتيبها وما ادراك ما ينجم عن تلك الطريقة من الفوائد العديدة التي تتبع الطالب بعد المدرسة وتقلده سلاحاً يرافقه مدى الحياة واول ما فيها انها تشجعه على اقتحام المصاعب وتعوده حصر انتباهه . والمواظبة والثبات حين الخيبة والفشل صفات لا بد لكل من نزل ميدان الحياة من التحلي بها . والحقائق المكتسبة بهذه الطريقة اثبت في الاذهان لانها ثمرة اكتشافها وفليجة تعبها وما يأتي بصعوبة لا يذهب الا كذلك وانعكس بالعكس

ومن اخذ البلاد بغير حرب يهون عليه تسليم البلاد

ثم ان الطالب الذي يعوده المعلم الاعتماد على نفسه في حل المسائل قد يجد صعوبة في حلها اليوم وتكلفه وقتاً طويلاً ولكنه يرى نفسه في الغد اسهر منه اليوم فيرى سهولة في حلها واقتصاداً في الوقت كبيراً قال مارسل « ما يكتسبه الطالب بتعب ذهنه اوضح واجلى مما يأخذه عن غيره » وهذه الطريقة تسر التلميذ وتستميل انظاره وما يقرأ او يسمع او ينظر بسرور يسهل تذكاره فيما بعد نظرا ما في هذا السرور من الاستمتاع بالصحة والسعادة في الحياة ومن فوائدها انها تجعل التلميذ ينظر الى معلمه نظر الحبيب الى محبه والابن الى ابيه ويزول ذلك الاعتقاد بهيبة المعلم المبنية الكاذبة المبنية على الخوف منه والنفور وتشجع الطالب على استئناف دروسه واتباع العلم بعد المدرسة

قد اطلت الكلام على هذه الطريقة لاني اعتقد اهميتها العظيمة فان المدرسة هي المعلم لا ما فيها من مقاعد وكتب . وما البروغرام والاوقات والمواضيع الا اشياء ثانوية لا اهمية لها تجاه هذا الامر الجوهري وهو المعلم والمعلم هو طريقته

وعلى ذكر المواضيع اود ان اقول كلمة في فن درس الاشياء . هذا الفن اعظم الفنون التعليمية توسيعاً للمدارك وانارة للاذهان وتهذيباً للقوى العاقلة على اختلاف انواعها . لانه يفتح عيون الطلبة لرؤية اجزاء الاجسام ويهذب عقولهم في تعليلها ونسبة بعضها الى بعض ونسبتها الى ما يتابلها في جسم آخر وذكر انواعها المختلفة ومنافعها الوافرة الى غير ذلك وقد تنبه له الاوربيون فألفوا فيه الكتب العديدة مزينة بالرسوم الملونة تشويقاً للطالب الى

مطالعتها وتعلمها . ولا اظنني مخطئاً في القول ان هذا الفن قاصر جداً في مدارسنا وارى ان بعض السبب في ذلك اننا لم نألف تعليمهُ من قبل لانهُ حديث الدخول الى بلادنا . غير ان السبب الاهم هو عدم حصولنا على الاشياء ومن يدرس شيئاً من غير ان يريهُ للطلبة او يكون في يدهِ صورة تمثلهُ كان كمن يدرس الفلسفة او الاشياء الخيالية اذ ما عسى ان يفهم الولد من الفرق بين القطن الاميركي والقطن المصري وهو لم تقع عينهُ على شيء منهما او ماذا عساهُ ان يفهم من اشكال الاسفنج وهو لم يرَ شيئاً منها . وهذه الاشياء يمكن الحصول عليها بسهولة من البلدان الاوربية ولعلهُ لا يمضي وقت طويل حتى يدرك المعلمون اهمية هذا الفن ويسعوا في تعزيزهِ فيسدوا بذلك نقصاً كبيراً

وعلى ذكر النقص يجدر بي توجيه النظر الى بعض النقائص التي تختص بالتربية العقلية مما يجب على الوالدين على اولادهم وقد يساعدهم عليهِ المعلمون القليلو الاختبار من ذلك تعليم الولد وهو دون السن الملائم لهُ . قال سبنسر « نتيجة التعليم الباكر اما هبوط بيّن في القوى الجسدية او الخمول التام او الموت العاجل » قال والسبب في ذلك ان الصغير لا يحتاج الى شيء احتياجهُ الى نمو جسمهِ فالتعليم الباكر يجني عليهِ بان يجعل الدم الذي فيهِ يذهب ليغذي الدماغ بدل ان يغذي اعضاء الجسم وينميها . ومثّل على ذلك بالاثمار التي يسرع نضجها غير صالحة وهي سريعة العطب . الى ان قال « ان الطبيعة محاسب ماهر امين فقد تسلف منها شيئاً في غير اوانهِ ولكنها لا تنساهُ بل يأتي يوم تناقشك فيهِ الحساب » ولا تحتاج في تأييد ذلك الى كبير مشقة اذ ما من احد منا الاَّ ووقعت عينهُ على كثيرين من الذين تهذبت عقولهم قبل اوانها فاصبحوا ضعيفي الاجسام مصابين بشيء من الاختلال والنظر اليهم كاف لان يهيج فينا عواطف الشفقة عليهم ويذرنا بخطر هذا السبيل ويحذرنا من اوتياده . النظر الى تهذيب العقل مع عدم التعرض للاضرار بالجسم هو ما دعا فروبل الى انشاء حديقة الاولاد وهي طريقة تعليم الاولاد وهم يلعبون

وعندما اراجع في ذهني الخطات الكثيرة التي ارتكبها المربون في الماضي ولا يزالـــ يرتكبها البعض في الحاضر لا ارى اعظم من خطهم في انماء الذاكرة وان شئت فقل حشوها واجهادها ولكن على نفقة سائر القوى العاملة . ذلك ايها السادة داء الشرق العام

ستأتي البقية توفيق زيتق